تتمة - جدار «الموت» العنصري

يضيف جرادات، وهو يشير لخارطة يحفظها عن ظهر قلب: ستشكل إلى جانب «الغيتوهات» الثلاثة العملاقة عدة سجون إضافية كمعزل حبلة، ورأس عطية في محافظة قلقيلية، ورافات، ودير بلوط، ومسحة في سلفيت، وآخر لشقبا، وقبية، ودير قديس، ونعلين، وبدرس، ومديا في شمال غرب رام الله، ورابع في خربثا المصباح، وبيت سيريا، وبيت لقيا، وسيكون نصيب بيت عنان، وبيت دقو، وبيت سوريك، وقطنة، ورنتيس، ودير ابزيع، مماثلاً، فيما ستتشارك بتير، وحوسان، ونحالين في معزل آخر في محافظة بيت لحم.

يسترسل: يمتد الفاصل أو «الخط الأخضر» ٣١٢ كيلومتراً، لكن الجدار المحاذي له تنامى إلى ٤٢٢ كيلومتراً ? وهو الذي سيصبح خط تماس جديداً، مثلما أعلن عنه في الثاني من تشرين الأول ٢٠٠٣، وسيحتاج الدخول إليه والخروج منه لتصريح من الجهات العسكرية، كالتصريح الذي كان يطلب لدخول أراضي «الخط الأخضر».

يتابع: ستنطلق المرحلة الثانية من الجدار العنصري، كما يبدو جلياً من أراضي قلقيلية باتجاه الخليل التي ستخسر ٤٩٪ من أراضيها، لتتحول بتجمعاتها السكانية إلى ما يشبه «الساندويتش».

وتفيد الدراسات المتخصصة أن طول الجدار في مرحلته الأولى يبلغ ١٦٠ كيلومتراً، في حين يبلغ الطول الحقيقي له ٩٠ كيلومتراً، لكنه امتد مسافة إضافية بطول ٧٠ كيلومتراً ليضم إليه المستعمرات الإسرائيلية.

عواقب وخيمة

يقول تقرير لمكتب تنسيق الشؤون الإنسانية في الأراضي المحتلة، التابع للأمم المتحدة، رأى النور في العاشر من تشرين الأول الفائت: إن الجدار ستكون له عواقب إنسانية وخيمة على نحو ٦٨٠ ألف فلسطيني، يمثلون ثلث السكان الفلسطينيين في المنطقة.

وأستند المكتب الأممي إلى معاينة خريطة إسرائيلية معتمدة، تؤكد أن الجدار سيقتطع ٥ر١٤٪ من الأراضي الفلسطينية عن باقي الضفة، في وقت ستتشكل فيه منطقة عازلة بين «الخط الأخضر» والجدار، يسكنها ٢٧٤ ألف فلسطيني، في ١٢٢ قرية وبلدة. وسيعاني ٣٠٪ من الفلسطينيين عواقب إنسانية وخيمة، فيما سيكون امتداد ١١٪ من الجدار بجانب «الخط الأخضر»، وسيقتطع الباقي عمق الضفة الغربية إلى ما يصل ٢٢ كيلومتراً.

يقاوم الجدار .. من فوق كرسي الإعاقة!!

ينشط اليوم مواطنون ومتطوعون أجانب من حركة التضامن الدولية، احتجاجاً على شروع إسرائيل في أعمال هندسية لتنفيذ المرحلة الثالثة من جدار الموت أو الجدار الأفعى كما يطلق عليه البعض، والذي سيمتد على السفوح الشرقية للضفة الغربية، بالتوازي مع نهر الأردن بطول ١٢٠ كيلومتراً.

وشرع المحتلون، مطلع الشهر الماضي، بتوزيع أوامر مصادرة على مزارعي منطقة الغور، تأمرهم بإخلاء دفيئاتهم الزراعية وتفكيكها، وتنذرهم بهدم ١١ منزلاً ومدرسةً ومسجداً في قرية العقبة بمحافظة طوباس التي تضم ١٨ منزلاً و٣٠٠ مواطن يعانون بصمت. ووحده الحاج سامي صادق ابن العقد الخامس يقاوم مخططات التهجير، على الرغم من إعاقته، فمن فوق كرسي الإعاقة المتحرك بمساعدة آخرين، يتابع كل الفعاليات المناهضة للجدار الشرقي، مثلما دأب منذ سنوات على تدعيم صمود قريته الواقعة جنوب شرق جنين، إذ بنى مدرسة ومسجداً وروضة أطفال، بعد أن سرقت رصاصة إسرائيلية انطلقت من معسكر احتلالي قريب، عافيته خلال وجبة تدريب على القتل أوائل السبعينيات.

يشير عمر منصور الناشط في شبكة المنظمات الأهلية والإغاثة الطبية إلى أن مساحات كبيرة من أراضي البطريركية اللاتينية سيبتلعها الجدار في منطقة تياسير القريبة من طوباس، فيما يقدر فتحي خضيرات، رئيس مجلس محلي بردلة، مساحة الأراضي التي سيلتهمها الجدار العنصري رقم (٢) من أراضي قريته وكردلة المجاورة وإبزيق بحجم قطاع غزة بأكمله.

يروي خضيرات وقد بدت علامات الحزن تحتل وجهه: سيأتي اليوم الذي لا نجد فيه قطعة أرض نزرعها، وسنصبح كما في الجهة المقابلة رهائن لجدار وأسلاك شائكة، وكتل إسمنتية وبوابات، وسنمنح التصاريح التي ستسمح لنا بممارسة سيادة منقوصة على بيوتنا!

بدوره، يتمنى أحمد قبها، عضو المجلس المحلي لقرية طورة الغربية شمال غرب يعبد، ومعه أعضاء اللجنة الوطنية لمواجهة الجدار أن نصحح النهج الذي نسير عليه لمناهضة إنشاء جدار شرقي، كي لا يصيبنا الوهن نفسه الذي حل بنا في الجهة الغربية.

يمطرنا سليمان داوود ابن العقد الثامن بحكاية مرة إضافية، إذ فقد أعز ما يملك بلمح البصر، فقد عمل في استصلاح أراض جبلية وعرة طوال حياته، وزرعها بأشجار الزيتون، في بلدته المطلة الواقعة شرق جنين والمشرفة على غور الأردن وسهل بيسان، إلا أن الجرافات الإسرائيلية وضعت حدا لأحلامه وأجتثت نحو ٦٠٠ زيتونه هي مجموع أرضه المنهوبة.

فيما يروي حسن الطاهر، الذي شارف على الوصول إلى عقده السابع، كيف أفنى أكثر من نصف عمره في استصلاح ١٨ دونماً سيبتلعها الجدار في دقائق.

سرقوا أشجار الخروب .. وزرعوها داخل إسرائيل!!

يقول: حتى أشجار الخروب المعمرة، سرقوها ونقلوها داخل «إسرائيل»، وشرعوا بالمتاجرة فيها وزراعتها هناك. لكن أولاده يخفون عليه ما حل بأرضه، فإذا ما علم، وفق تقديراتهم، فإنه سينقل لقائمة الأموات حسرةً.

يوسف داوود، أو معمر القرية الذي شارف الوصول إلى الـ ١٢٠ عاماً، يبث أحزانه، وهو يستند لعكازه: أنهم ظلموا، ودمروا البلد، وقلعوا الشجر، ويتمنى زوال عهدهم كشأن الحقب المختلفة التي مرت عليه منذ العام ١٨٩٠ تقريبا?..، وبحسبة بسيطة فإن سكان المطلة الـ ٢٧٠ وكلهم من أحفاد جد واحد، يواجهون وحدهم وبصمت ثلاث مستعمرات إسرائيلية متاخمة: «فرّوله» و«مالك يوشع» و«السامريه».

متعهدو إنشاءات يشاركون في الجريمة!!

يواصل قبها بث أوجاعه: لو اتبعنا سياسة صحيحة لرفض المخطط التهجيري، لما وصل الحال بنا إلى هذه السجون العملاقة، لكن المفارقة برأيه تتمثل في مشاركة مقاولين وعمال فلسطينيين في بناء سجونهم بأنفسهم!

(م) مواطن فضل أن يبقى اسمه طي الكتمان، يمتلك دلائل وتفاصيل عن تورط أشخاص ومقاولين في بناء الجدار المحيط بمحافظة جنين. و(م) الشاب الجامعي الذي أنهى دراسته قبل ٥ سنوات، وأصبح شغله الشاغل تتبع مسار الجدار وآلية مقاومته الشعبية.

يقول بانفعال واضح: هناك من أحاط بيته بالأسلاك الشائكة، وتلقى ملايين الشواكل جراء عمله كمتعهد إنشاءات، فيما المفارقة برأيه تجسدت في حقيقية أن عدداً كبيراً من العمال الفلسطينيين من أبناء بعض القرى المتضررة جزيئاً أو كلياً من الجدار، أسرعوا للعمل فيه لدى متعهدين فلسطينيين آخرين قدموا من داخل «الخط الأخضر»، لكنهم وقعوا في الفخ، ولم يستلموا أجور عملهم» في تخريب بيوتهم بأيديهم، كما يصف ? نتعرف على الأسماء والمبالغ التي وصلتهم، نتحدث إلى بعضهم الذي تظاهر بالوطنية، وغطى عيونه بدموع التماسيح، وراح يطلق الشهادات المشفوعة بالقسم حول خواء الجيوب والفقر والجوع والقصور الرسمي والشعبي في المواجهة، وينذر بكارثة ستسقط على قريته، فيما يوفر عملاً لأكثر من أربعين فرداً في الجدار، لكننا نحرص على إبقاء الأسماء دون تحديد، حرصاً على ما تبقى لنا من أمن اجتماعي!!

وقطعوا .. أشجار الزيتون بأيديهم!!

والحال مماثل تماماً في جلبون، شرق جنين، إذ تخلى أربعة من أبنائها عن إنسانيتهم، وراحوا يعملون في قطع أشجار زيتونهم (الأسماء محفوظة لدينا)، ويتشاركون في سرقة الأرض والأحلام لقاء أموال وامتيازات.

يرسم جرادات صورة عن قرب لهذه المأساة، فعندما علم بتوجيه بعض العمال من إحدى قرى جنين الشرقية للعمل في الجدار الذي يلتهم أراضيهم، حاول فعل شيء، لكنه لم يستطع، فهؤلاء بحاجة لبدائل أو سيموتون جوعاً مثلما قال بعضهم ?

يشير لنجاح «تجربة طولكرم» مثلما أسماها، فعندما علمت جهات القرار في المحافظة بتسرب بعض العمال لبناء جدار يطوق أعناقهم، وفرت لهم وظائف ومساعدات ?

يقترح (س) ابن قرية زبوبا شمال جنين، وهي أيضاً من ضحايا الجدار والمصادرة أن يدعم العمال والعاطلين، كي لا يشاركوا في سجن أنفسهم وقلع أشجارهم ?

ينتقد آخرون تأخر فتوى الشيخ عكرمة صبري بتحريم العمل في بناء الجدار، ويعتقد بعضهم أن مثل هذه الفتاوى كان من الواجب إطلاقها منذ بدء المستعمرات بتدمير أرضنا، وتوجه الأيدي العاملة الفلسطينية للمشاركة في تشييدها.

بدوره، يرى النائب برهان جرار، أن قضية العمل في تشييد الجدار، بحاجة لواقعية توفر البدائل، ولا تتجه للعمل العشوائي، إذ ينقصنا الترابط والتنسيق من أجل نهايات ناجحة لأعمالنا.

يضيف: حاولت شخصياً توجيه دعوة لأصحاب المتاجر في جنين، لإغلاق محالهم كتضامن رمزي مع قرى الجدار، ولفترة محدودة، لكنني لم أجد آذاناً صاغية، والأمر يختلف لو كان صادراً عن جهات أخرى.

ستشطر قريتنا .. إلى نصفين!!

ينتقل سمير دحبور، العضو في مجلس قروي تعنك، ٨ كم شمال جنين، لمشهد رعب آخر، ربما لا يأتي أحد على ذكره هذه الأيام. يقول: شرع المحتلون بوضع علامات خضراء بدءاً من الجلمة، وصولاً إلى مشارف يعبد، على بعد يتراوح بين ١ و٣ كيلومترات من الجدار العنصري، لإنشاء جدار إضافي.

وسيفضي الجدار حال إطلاقه لكارثة أخرى، إذ سيصنع منطقة عازلة أخرى تقع هذه المرة على الجهة الأخرى للجدار في عمق الأراضي المحتلة العام ١٩٦٧، وليس داخل «الخط الأخضر»?.

وإذا ما خرج المخطط الاستيطاني إلى حيز التنفيذ، فإن قرى زبوبا، ورمانه، وتعنك التي يسكنها نحو سبعة آلاف مواطن، ستنضم إلى جانب برطعة الشرقية، وخربة الشيخ سعيد، وقرية أم الريحان.

يقول دحبور: ستشطر قريتنا إلى نصفين، وستتحول إلى جهة شمالية وأخرى جنوبية، لنفقد ما تبقى لنا من أحلام، ولتصبح حركتنا من بيوتنا وإليها بحاجة لتأشيرات دخول.

يعود جرادات ثانية لتوصيف جدار الكراهية، ففي بعض المواقع المنكوبة يتخذ شكل جدران إسمنتية بطول ٨ أمتار، وفي أخرى هناك أسلاك شائكة معززة بخنادق بعمق أربعة أمتار من الجانبين، مع أسلاك كهربائية ومجسات إلكترونية، وكاميرات ودوريات حراسة مخولة بإطلاق النار، وكلها مرتبطة بمحطات مراقبة تبعد عن بعضها البعض ٢٠٠ متر، أي إنه يتفوق على جدار برلين بثلاثة أضعاف في الطول وضعفين في الارتفاع.

احتلالان

ووفق اعتراف الاحتلال، فإن الطول الإجمالي للجدار يبلغ ٥٩٠ كيلومتر، بكلفة إجمالية توازي ٦ مليارات شيكل، كمشروع لم يكن له مثيل في تاريخ الدولة العبرية حتى مقارنة مع «خط بارليف» الذي بني على ضفاف قناة السويس بعد نكسة العام ٦٧، أو مشروع الناقل القطري للمياه، أو تجفيف بحيرة الحولة، فإن ١٧ شركة مقاولات تسهم في إنشائه بـ ٢٠ كتيبة مشاه لحراسته، وسينقل ٧٠ ألف فلسطيني ليصبحوا خلف الجدار وداخل منطقة محتلة مرتين على الأقل، فيما سيظل نحو ٨٠٪ من المستوطنين غرب الجدار. وهذا يعني ضم ٣٥٠ ألف مستوطن إلى «السيادة» الإسرائيلية الكاملة.

وحتى قبل ثلاثة أشهر من اليوم، فقد ٣٠ ألف فلسطيني مصدر رزقهم بشكل تام، لأن أراضيهم انتقلت لنوع جديد من الاحتلال الذي سيسيطر على أخصب بقاع الضفة الغربية، حيث ٤٠٪ من الأراضي الزراعية لأكبر ثلاث محافظات زراعية (جنين، طولكرم، قلقيلية)، يقدر عائد الكيلومتر المربع الواحد منها بـ ٩٠٠ ألف دولار أمريكي.

المياه: الرعب الخفي

وأصبح ثلثا مصادر المياه في الضفة الغربية خلف الجدار، إذ تنتشر ٣٦ بئراً جوفية في الأراضي المصادرة، ويتهدد الهدم ١٤ بئراً أخرى لوقوعها في المنطقة العازلة، وتنتج هذه الآبار ما يعادل ٧ر٦ مليون متر مكعب من المياه سنويا، ففي قلقيلية وحدها، حيث يقع نظام الطبقة الجوفية الغربي الذي يزود الضفة الغربية بـ ١٥٪ من مياهها، اتسعت شهوة المصادرة، إضافة لنحو ٤٥٪ من أراضي المدينة التي تقلص سكانها حسب الناشط في حركة التضامن الدولي يوسف الشلبي خمسة آلاف إنسان، كونها أصبحت سجناً يحاط بأسوار، ولا يمتلك غير بوابة واحدة يغلقها حاجز عسكري.

وطبقا لتقديرات مجموعة الهيدرولوجيين الفلسطينيين، فإن الجدار الأفعى سيفكك المجتمع الزراعي الفلسطيني، ويلغي الزراعة المروية في الأغوار ومناطق جنين وطولكرم وقلقيلية، ومن شأن ذلك خلق حقائق تجعلنا غير قادرين على تبرير حاجاتنا من المياه للزراعة في المفاوضات القادمة والنهائية «إذا أعيد إليها الروح»، وسيتحول المجتمع الفلسطيني لمجتمع عمالي يعتمد على العمل داخل «الخط الأخضر».

من جانبه، قال جمال، جمعة منسق حملة مقاومة الجدار في شبكة المنظمات البيئية، إن الجدار ليس جداراً عنصرياً فقط، وإنما جدار عبودية يتيح لإسرائيل التحكم بالحياة اليومية للمواطنين، من خلال بوابات تفتحها لهم في الصباح وتغلقها عليهم في المساء ?.

ووفق الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، فإن إسرائيل وحتى مطلع أيلول الفائت، صادرت ١٦٥ ألف دونم في ٧٦ تجمعاً سكانياً، وهجرت ٢٣٢٣ مواطناً، فيما وصل مجموع خسائر التجمعات المتضررة جراء بناء الجدار الأفعى في البنية التحتية حوالي ١٠٧٠٠ ألف دولار، منها ٢٨٠ ألفاً خسائر تدمير آبار المياه الجوفية، و٤٤١٧ ألفاً خسارة تدمير شبكات الطرق، فيما تكبدت شبكات المياه خسائر بـ ١١٩ ألف دولار، ونال الاحتلال من شبكات الكهرباء بخسائر وصلت إلى ١٩٤ ألف دولار.

لقرية المطلة، ١٥ كم شرق جنين، حكاية أخرى، إذ نالت أعمال المسح والتجريف من آبار جمع مياه الأمطار المنتشرة في أنحائها، فاستخدمت وفق الأهالي، كنقاط انطلاق لأعمال التجريف باستخدام الديناميت، للتغلب على طبيعة المكان الصخرية والوعرة.

يتبع ص٦-٧